

استنطاقُ الذاكرة التاريخية والسياسية في رواية "طير الليل" لعمارة لخص

Interrogating historical and political memory in the novel bird of night by Amara

Lakhous

ط.د. زين العابدين مبارك^{1*}، د. شفيقة بن داود²،¹ جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله (الجزائر)، zinelabidine.mbarek@univ-alger2.dz،² جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله (الجزائر)، chafika.bendaoud@univ-alger2.dz،

مخبر أطلس الثقافة الشعبية الجزائرية

تاريخ النشر: 2025/06/10

تاريخ القبول: 2025/05/09

تاريخ الاستلام: 2025/01/22

ملخص:

تبنى الرواية عالمها المتخيّل متواشجة مع أجناس أدبية وأنساق معرفية، وتطرح بكل التقنيات و التّواشّجات - في ظاهرها أو في مُضمّرها - أسئلةً عالقةً يمرّر من خلالها الروائي وجهةً نظره، ورؤيته للعالم انطلاقاً من ذاكرته الثقافية التي يضغّب عليه إخفاءً ملامحها، لبحث القارئ بآلياته - نموذجيةً كانت أم ساذجةً - عن إجابة يحاول من خلالها معرفة ماضيه، فهم حاضره، وبناء مستقبله. نحاول في هذه الورقة مقارنةً متن "طير الليل" لعمارة لخص، والوقوف عند قراءته للذاكرة التاريخية والسياسية في الجزائر، وما تُثيره بعض القضايا من جدلٍ رغم الألتباس بين ما هو تاريخي وما هو سياسي، واستحالة رسم خطٍ فاصلٍ بينهما، باستثناء بعض القضايا التي تتمظهر فيها مقوّمات التاريخي أكثر من السياسي.

كلمات مفتاحية: الرواية، التاريخ، التّخيّل، السياسة، العنف.

* المؤلف المرسل: زين العابدين مبارك

Abstract:

The novel builds its imaginary world modestly with literary genres and cognitives systems ,so it appears flexible and picturesque. It raises with all the techniques and correspondances , out standing questions through which the novelist passes on his point of view and his vision , starting from his cultural memory, and the reader searches,using typical or naive mechanisms, understanding his present and building his future.We try in this paper compering the test of Bird of Night by Amara Lakhous and considering when reading it the historical and political memory in Algeria and the controvercy raised by some issues, And because it erases fifty years of algerian history, starting from the liberation revolution throgh the black decade, all the way to the cocaine incident in the year two thousands and eighteen, which we chosen for practice.

Key words: the novel; The histroy ; Politics; Violence; Fiction.

1. مقدمة:

تحت غطاء الجريمة، وكل أشكال الخيانة مرَّزَ عمارة لخصوص في روايته "طير الليل" خطاباً مُترعاً بالتاريخ والسياسة، لم تقلل الكثافة الزمنية والقضايا التي يطرحها من قيمته الفنية، بل ميَّزته عن كثير من خطابات الروائيين المهتمين بتاريخ الجزائر الحديث، تطورات المشهد السياسي، ورسم صورة عن شخصيات "لا مساس" عجز الخطاب التاريخي عن تعريضها واستطاع عمارة لخصوص تشكيل ملامحها سردياً بسلطان التخيل.

تحاول هذه الدراسة باتباع منهج تحليلي وصفي الكشف عن مُضمرات خطاب عمارة لخصوص، والديالكتيك الذي تثيره بعض القضايا التاريخية والسياسية على سبيل التمثيل لا الحصر، مع مراعاة الجانب

الإيديولوجي واستحالة التجرد من تبعيته الحتمية وعليه حاولنا الإجابة عن التساؤلات الآتية:

➤ هل يمكن التماس الحقيقة في المتخيّل التاريخي؟

➤ لماذا أزال عمارة لخص عن المجاهد القداسة التي منحته له الذاكرة الشعبية الجزائرية؟ وهل أعاد تشكيل صورته فنيا بما يتناسب وقراءته لتأثير فئة المجاهدين المزيّفين على المشهد السياسي؟

➤ كيف يقرأ عمارة لخص عنف السلطة؟ هل بوصفه باتولوجيا استعمارية أم حالة سيكولوجية متجذرة؟

2. الرواية والتاريخ: لماذا العودة إلى الماضي؟

إن فعل الكتابة غالبا ما ينطلق من محاولة الإجابة عن سؤال يطرحه الراهن بكل زخمه؛ هذا ديدن الرواية التي تغترف من معين التاريخ، وتسُتَنتق المساحات الصامتة فيه؛ بحكم طبيعتها الخِلاسية المرنة، لتحضن الإجابة وتقول ما عجز التاريخ عن قوله، ومن ثمة تحرك العقل النقدي العربي لمدارسة علاقة الرواية بالتاريخ، والحدود الفاصلة بين ما هو مرجعي/واقعي وفني/تخييلي، مستثمرا في المدونة النقدية الغربية لا سيما عند بول ريكور-Paul.Ricoeur- الذي بث الروح في السرد بعدما كان ميتا في الخطاب الفلسفي بحكم تبني الأخير للعقلانية، وما أثاره طرح ريكور للسرد من ردود أفعال متباينة في الساحة العلمية بداية من هايدن وايت-Hayden.White- ونظريته في التاريخ، مروراً بالسردويين وصولاً لجاك لوغوف-Jacques.Legoff- ومدرسة الحوليات في فرنسا.

يرى نضال الشمالي أن الحدث في الحاضر يحرك عجلة العودة إلى الماضي؛ لإعادة بنائه وبث الحركة فيه، ويضيف الشمالي أن الغاية من كتابة الرواية التاريخية هي غاية تعليمية، مبررا أن في الماضي دروس وعبرا يمكن للروائي إعادة بنائها فنيا (الشمالي، 2006، صفحة 133/138)، نجد هذا الطرح عند جورج لوكاتش -György.Lukács- الذي لا يمكن الاستغناء عنه، وهو المرجع في نظريته عن الرواية التاريخية، حيث يرى أن كاتب الرواية التاريخية أو من يطرح قضية تاريخية لا يلتفت إلى الماضي إلا من خلال الحاضر، لكن ينفي لوكاتش أن تكون الرواية التاريخية تاريخا فهي تنسج سردها من المادة التاريخية؛ تحذف، تختزل، وتضيف على نحو جمالي من وجهة نظر الكاتب الفنية للحدث. يقول لوكاتش: "إن الرواية ليست إعادة كتابة للتاريخ، بل إعادة تدوين على نحو جمالي لا حيادي إلى نص، نص تاريخي غير مكتمل، فالتاريخ (دال) وإنما الماضي (مدلول) والتاريخ هو رؤية المؤرخ" (لوكاتش، 1978، صفحة 89). فيما توعز دراسة عبد الله إبراهيم سبب هذه العودة إلى البحث عن هوية مرنة (إبراهيم ع.، 2011، صفحة 20).

يؤدي عنصر التشويق دورا مهما في استقطاب القراء إلى رحاب الرواية التاريخية، ويسهم في أنقراية النص ولعل هذا ما يجعل الروائي يمدُّ يده إلى حقل التاريخ استنادا لطروحات مدرسة الحوليات إذ يقول جاك لوغوف "... ومن المجالات التي يجب على التاريخ الجديد اقتحامها، مجال تبسيط المعارف التاريخية وإشاعتها بين الناس...فرواده لهم القدرة على إعادة الحيوية إلى الماضي وتبليغه مثلما فعل القدامى عبر وسائل مناسبة، مثل فن الرواية وجمال الأسلوب" (لوغوف، 2007، صفحة 9).

إن انتقاء الروائي للقضية التاريخية ومزجها بعنصر التخييل هو بمثابة تحريك جسم ثابت عاجز عن الحركة، وإحياء القضية التاريخية في ذهن القارئ لن يكون إلا بالرواية المستفيدة من عنصر التخييل لخلق التشويق، ودفع القراء للتعرف على ما لم يقله التاريخ وهنا تكون الرواية خادمة للتاريخ.

3. الرواية والسياسة:

عرفت الدائرة القرائية للرواية السياسية اتساعا في المجتمعات المعاصرة تبعا لما شهدته هذه الأخيرة من تطورات، حيث طرحت الرواية السياسية أسئلة وقضايا تخص الإنسان وحاولت أن تقدم شرحا وتبني وعيا بالأحداث والمتغيرات حوله، وأصبحت بهذا المعنى وسيلة لفهم الحكم، السلطة، الاستبداد، والإبادة الجماعية، ولعبت الرواية السياسية دورا مهما في النقد الاجتماعي والسياسي وأدرك الروائيون قيمتها، ودورها في عملية التغيير يقول الروائي السويسري جوتفريد كيلر-Gottfried.Keller معبرا عن وجود السياسية في حياة الناس "كل شيء سياسة" (عطية، صفحة 10).

1.3 ماهية السياسة:

يعتري مصطلح السياسة غموض حاله حال الكثير من المصطلحات بسبب التداخل بينه وبين مصطلحات أخرى واختلاف وجهات نظر الباحثين. يفتح هذا الغموض والخلفيات الإيديولوجية والابستمولوجية والمنطلقات المختلفة مجال البحث في سؤال ما السياسية؟

تعدُّ حنة أرندت-Hannah.Arendt- من أكثر الباحثين إماما بماهية السياسة، اهتمت بالمفهوم مدفوعة بظروفها وما تعرضت له من تهمة وإقصاء من النازية بسبب ديانتها اليهودية. اشتغلت حنة أرندت في منجزها الفكري على المفهوم في مجموعة من المقالات في كتاب عنوانه ما السياسة؟ ناقشت فيه إشكالية العلاقة بين الفلسفي والسياسي في الموروث الإنساني والارتباط الوثيق بين السياسة والتجمعات البشرية. السياسة حسب طرح أرندت موجودة بوجود البشر، تنظم علاقتهم وتحكم بينهم، نفت استقلاليتها عن التجمعات البشرية متأثرة بنظرتها للإنسان ذات الطابع الجماعي، فهي لم تر الإنسان كوحدة مستقلة "السياسة: (كما ندركها) هي ضرورة قهرية للحياة الإنسانية، سواء تعلق الأمر بالوجود الفردي أو الاجتماعي..." (أرندت، ما السياسة ، 2014 ، صفحة 33) وتقول " [إن] ما نعتبره كأمر بديهي أن السياسة موجودة دائما وفي كل مكان وجدت فيه وجد تجمع بشري بالمعنى التاريخ - ثقافي " (أرندت، ما السياسة ، 2014 ، صفحة 33)

تحدد أرندت السياسة عن طريق ربطها بالعالم وما فيه من عناصر تكوّنه، وبمعنى آخر إن السياسة قضية تتعدى حدود الإنسان وحده كفرد إلى الوجود أو ما تسميه التجمعات البشرية، حيث تكتسي السياسة بهذا المعنى طابعا اجتماعيا، وتبتعد عن البسيكولوجيا والجوهر الداخلي للإنسان. إن هذا الطرح يثبت وجود السياسة بوجود التجمعات البشرية؛ فالميلاد هو اللحظة الأولى لتكوّن السياسة. (التمارة، 2019 ، صفحة 19 وما بعدها)

إن هذه الحتمية لا تعني اعتبار الإنسان كائنًا سياسيًا بفطرته، إنما نجده يمارس السياسة بحكم استحالة عيشه خارج الجماعة وبالتالي هو كائن لا سياسي فُرضت عليه السياسة فقط لتنظم علاقته داخل التجمعات البشرية.

بدورها انطلقت الباحثة الجزائرية مليكة بن دودة - المختصة في الفلسفة السياسية - من الإشكالية ذاتها لحنة أرندت حول وجود معنى للسياسة من عدمه، حيث تُجمَعان على أن اختفاء السياسة في الفلسفة هو بسبب تبلور مفهوم حديث للتاريخ، والذي يُطرح كبديل للأحداث السياسية والحراك السياسي وما دام أن الحدث السياسي قد اختفى داخل المفهوم الحديث للتاريخ (بن دودة، 2015، صفحة 36) فما الجدوى من البحث عن معنى السياسة؟ هذا إذا بقي للسياسية معنى بظهور هذا المفهوم؟

2.3 الجدوى من البحث عن معنى للسياسة:

تساهم السياسة في هيكلة وتنظيم علاقة الإنسان بمحيطه وتصرفاته داخل التجمع البشري، فهي مجال معرفي هدفه التنظير لكيفية العيش داخل مجتمعات معقدة ودقيقة، بمعنى آخر السياسة فن لتدبير العلاقات الاجتماعية وتعميق الوعي بها والعمل على تقويمها وصيانتها (التمارة، 2019، صفحة 21)

3.3 الرواية السياسية: محددات الانتماء:

حملت الرواية منذ نشوئها على عاتقها تخيلا سياسيا محاولة مواكبة المتغيرات الساخنة التي طفحت على السطح دوليا، إقليميا، ومحليا، ومع تطوّر المجتمعات ونزوحها نحو التعقيد تعزّز دور الرواية

السياسية في المجتمع وعرفت دائرتها القرائية اتساعا مقارنة ببقية أنواع الروايات، نظرا لما تطرحه الرواية السياسية من أسئلة وقضايا تهم الإنسان وما تتيحه للقارئ من فرصة استيعاب الأحداث والمتغيرات الماضية والراهنة وطرح الإشكاليات، وتحولت بمرور الزمن إلى وسيلة من وسائل التربية تبني وعيا وتخرج الإنسان من أزماته المتراكمة، وإلى نشاط إنساني يستهدف السلطة، الحكم، وتصوير الاستبداد والانتهاك الصارخ لحقوق الإنسان من خلال الإبادات الجماعية المنظمة والاعتقال السياسي على ممر التاريخ؛ أي "ضرورة قهرية للحياة الإنسانية، سواء تعلق الأمر بالوجود الفردي أو الاجتماعي..." (أرندت، ما السياسة، 2014، صفحة 33)

الرواية عالم فني واسع تتوسل التخيل، تقنيات الكتابة وأساليب السردنة لطرح القضايا والأسئلة، ومن القضايا السياسية التي تعالجها نحدد ما يلي بناء على ما جاء في دراسة مستفيضة للباحث المغربي عبد الرحمن التمار في كتابه "الممكن المتخيل المرجعية السياسية في الرواية":

(أفكار سياسية وبرامج حزبية/ الأفكار المحرصة على الانقسام والصراع بين الشرائع المجتمعية/مصادرة الحقوق/الاستبداد والاستخدام التعسفي للسلطة والحروب/تنمية الحس الوطني/الأحزاب غير الرسمية/الصراع العقدي وكبح التعددية/الأنظمة السياسية ومميزاتها النوعية/أسلوب الحكم/طريقة تشكيل الحكومات والصراع بينها وأحزاب المعارضة/آلية صدور الصراعات/الحاكم ونوعية نظامه السلطوي/العلاقة بين المحكومين/الحراك والدافع السياسي(الثورات والمظاهرات)/الوزراء، النواب، رؤساء الأحزاب أو ما نسميهم بالفاعلين

السياسيين / المناسبات السياسية كالانتخابات والمؤسسات السياسية (التمارة، 2019، صفحة 41 وما بعدها)

4 . قضايا التاريخ في رواية طير الليل لعمارة لخص:

1.4 الخطاب التاريخي المتخلل:

تَجْمَع رواية "طير الليل" بين التوثيق والتخييل، وتمسح خمسين سنة من تاريخ الجزائر بداية من الثورة التحريرية وصولاً إلى حادثة الكوكابين عام ألفين وثمانية عشر، تبنير الرواية لهذا المجال الزمني الواسع لا يعني نمذجتها رواية تاريخية ولا عملاً فنياً يطغى فيه الجانب المرجعي التاريخي على حساب الفني التخيلي أو العكس، بل يتماشيان جنباً إلى جنب نحو العثور على أجوبة واضحة واستثارة الجدل حول قضايا تاريخية عالقة، وفي هذا المسار تتخلل رواية "طير الليل" خطابات ووثائق تاريخية، ممّا يثبت التداخل الأجناسي في الرواية عموماً بوصفها جنساً مرناً قابلاً للتداخل مع أجناس أدبية وأنساق معرفية مختلفة، والسؤال المطروح هل تقول هذه الوثائق الحقيقة، وما الذي تريد قوله؟ وبأي حق تدّعي قول الحقيقة؟ وهل تقول الصدق أم تزيفه؟ وهل هي على دراية بالأمور أم على جهل بها؟ والمؤكد أن كل هذه الأسئلة هي لإعادة بناء الماضي انطلاقاً مما تقوله الوثائق التي يختفي خلفها الماضي. (فوكو، 1987، صفحة 8)

نشير على سبيل التمثيل لا الحصر إلى خطابين الأول للرئيس هواري بومدين والثاني للرئيس الشاذلي بن جديد أدرجهما عمارة لخص في روايته، حيث قمنا بتقصي هذه القضايا التاريخية من باب صدق ناقلها من عدمه انطلاقاً من مقولة ميشال فوكو السالفة الذكر:

"أيها الشعب الجزائري الأبدي، وبمعنى آخر دولة لا تزول بزوال الحكومات والأفراد" (لخوص، 2019، صفحة 91)

"ولهذا، ... ومن الجميع عدّ هذا القرار تضحية مني في سبيل المصلحة العليا للأمة" (لخوص، 2019، صفحة 191)

بحثنا في كتب التاريخ عما يحمله هذا الخطاب التاريخي من حقيقة، زُيفٍ أو تصوّفٍ من عمارة لخصوص بحجة التّخييل، حيث أثبتت الكتب وجود هذه الحادثة وهي انقلاب هواري بومدين على الرئيس أحمد بن بلة في الثامن عشر من جوان عام ألف وتسع مئة وخمسة وستين للميلاد.

ذكر العقيد الطاهر زبيري في كتابه "نصف قرن من الكفاح" في الفصل السابع المعنون ب: "تنحية بن بلة" هذه الحادثة بالتفصيل وهي المتطابقة مع الخطاب التاريخي المتخلل في رواية "طير ليل"، ما يعني لنا أن عمارة لخصوص قال الحقيقة كما هي دون تصوّفٍ "فإذا نجحنا فقد ننهي زمن الحكم الفردي ونحيي القيادة الجماعية المبينة على التشاور وتقبل اختلاف الرأي. وإن فشلنا لا قدر الله - سيزداد تجبر الزعيم وستملأ السجون وتنصب المحاكم الفرعية للإطاحة بالرؤوس المعارضة للحكم الفردي" (زبيري، 2011، صفحة 11)

في المقطع الثاني فقرة من خطاب الرئيس الشاذلي بن جديد يعلن فيها استقالته من رئاسة الدولة، وهي الاستقالة التي بررها الرئيس بمراعاة مصير الأمة ومصلحة الشعب. نجد الروائي عمارة لخصوص نقل الخطاب كما هو دون أن يحدث فيه تغييرا رغم أن كل التحاليل ذهبت إلى إجبار الجيش الرئيس الشاذلي بن جديد على الاستقالة تمهيدا لرحلة الإسلاميين من السلطة بعد فوزهم في الانتخابات المحلية وحيازتهم على خمسة وخمسين في المئة من الأصوات. (زبيري، 2011، صفحة 349)

2.4 الشخصية التاريخية المتخيّلة:

• شخصية "طير الليل":

استُخدمت الشخصية التاريخية المركزية في النص بشكل رمزي للتعبير عن أفكار معينة والتّملص من المضايقات، فكثيرة هي الشخصيات المحاطة بالقداسة وغير القابلة للمسّاس. تضيف هذه التقنية على المعنى عمقا وإثارة خاصتين؛ تمنح القارئ فرصة التأويل والبحث عنها في الواقع بما يملكه من آليات فهم واستيعاب لهذه الشخصية الرمزية داخل السياقات السردية.

إنه لمن المتعارف عليه أن "الخفّاش" أو "الوطواط" لا يحظى بسمعة طيبة في كل الثقافات، وارتبط اسمه بالأوبئة والأمراض الفتاكة آخرها وباء كورونا في عام ألفين وعشرين. يلعب هذا الكائن على الحبلين وهو رمز لكل ما هو شيطاني وخبيث، يمارس النفاق علنا؛ يطير مع الطيور ويمشي مع الفئران. اشتغل عمارة لخص في متنه "طير الليل" على نوع من الشخصيات التاريخية التي استغلت إرثها التاريخي ونفوذها فأثّرت في الأحداث السياسية وغيّرت مجرى التاريخ والأمثلة كثيرة في الجزائر لا يتسع المقام لذكرها. قدم لخص هذه الشخصية قادرة على ارتداء عباءة للصلاة وحمل قنينة نبيذ في نفس الوقت في رسالة واضحة لممارسة الفساد ومحاولة الظهور بمظهر الصلاح في آن.

يمكن تصنيف هذه الشخصية حسب دراسة نضال الشمالي عن الرواية التاريخية ضمن الشخصيات التاريخية المفترضة المتخيّلة، حيث ساعدت هذه الافتراضية الروائي على قول ما لم يستطع المؤرخ قوله. إذ يقرّب الروائي المسافة بين هذه الشخصية والواقع بتصرفاتها ومواقفها

حتى يتمكن القارئ من معرفتها والوصول إلى حقيقة أن هذه الشخصية ليست متخيَّلة فحسب، بل هي مستدعاة من التاريخ بشكل رمزي يقول نضال الشمالي: "لم تجدها مرجعية ولا تقيدها نصوص التاريخ القديمة فهي ليست وليدتهم، إنها وليدة تمازج الأفكار وتبلُّورها على نحو خاص" (الشمالي، 2006، صفحة 233)

5 المرجعية السياسية في رواية "طير الليل":

1.5 السلطة والعنف تلاحم أم تنافر:

يعالج لخصوص موضوع العنف وأصله المتجذر في التاريخ، يفتح روايته بمقولة لحنة أرندت المعروفة ببحوثها في السياسة وكتابتها الشهير (في العنف). وجود هذه المقولة ليس اعتباطيا فالمقولات الافتتاحية في الأعمال الأدبية لها صداها في المتن وليست معزولة عن موضوعه وموضوعته، وهو الأمر الذي اكتشفناه بوصول القراءة لآخر فصول "طير الليل"، حيث يظهر العنف من بدايتها إلى نهايتها كأن لخصوص يقول: العنف متجذّر في تاريخ الجزائر بداية من الثورة وصولا إلى يومنا هذا كتجذره في التاريخ الإنساني وهو ما تقوله حنة أرندت "... إن أي أخوةٍ تقدر عليها الكائنات الإنسانية قد نشأت عن قتل الأخ لأخيه، وإنَّ أيَّ تنظيمٍ سياسي أنجزه البشر أصله في الجريمة..." (لخصوص، 2019، صفحة 9)

يتوافق طرح لخصوص من خلال شخصية "عباس بادي" المعارض للسلطة وتدخل العسكر في الحياة السياسية مع حنة أرندت في مسألة وجود العنف في حياة السلطة، هذا العنف الذي تفشَّى بعد الاستقلال وتولّد عنه عنف مضاد أدخل الجزائر في هذه الدوامة

والسبب هو الصراع على السلطة لا غير. تقول حنة أرندت: "كل سياسة إنما هي صراع على السلطة والعنف إنما هو أقصى درجات السلطة هذا ما كان ك. رايت يقوله مستعيداً في هذا الصدد تعريف ماكس فيبر للدولة بوصفها "سلطة للناس على الناس قائمة على أدوات العنف (أي العنف منظورا إليه على أنه مشروع)" (أرندت، في العنف ، 2015، صفحة 31)

2.5 ميلود صبري بين تعرية التّخييل وصمت التّاريخ:

يطرح السرد من خلال التّخييل تساؤلات حول مواضيع كثيرة؛ منها الشخصية الثورية "اللامساس" في التاريخ الرسمي وصورتها الحقيقية، فيكون السرد بهذا النّش في الذاكرة بمثابة حُكّةٍ إصْبَعٍ على قُرْحَةٍ تزداد دماً كلّما أصرَّ الإصبع. تتوجه عدسة السرد لـ "ميلود صبري" أو "طير الليل" كما يُنعت له لخص في كل فصول الرواية، حتى أن القارئ العليم يكاد يجزم أن الرواية موجهة في الأصل لتعرية هذا النوع من المجاهدين الذين سكت عنهم التاريخ ولم يسْكُتْ عنهم الحكيم. يقول السارد على لسان المحامي "إدريس طالي" وهو يخاطب العقيد "كريم سلطاني" المسؤول عن التحقيق: "الفرق بينه [يقصد المحامي] وبين أشخاص أمثال ميلود صبري هو كالفرق بين المجاهد والمرتزق؛ النوع الأوّل حارب الاستعمار حتّى يتحرّر وطنه، ثمّ عمل ولا يزال يعمل، ليبني البلد، أمّا النوع الثاني، فاستغلّ الثورة لخلق الثروة، هؤلاء لم يهتموا يوماً بمصلحة الجزائر، دَمَّرَ ميلود وأمثاله البلد، ويريدون مواصلة التدمير..." (لخص، 2019، صفحة 108)

"ميلود صبري" مجاهد مزَيَّف في صفوف الثورة منزوع القيم، خائن يعمل لصالحه أكثر مما يعمل لصالح الجزائر، همُّه الأول والأخير

الانتفاع الذاتي ولو على حساب فلذة كبده وقيم الإنسان، تترك هذه الشخصية الرئيسية التواقفة للهيمنة على الآخر ولو كان رفيق سلاح ونضال ضد الاستعمار جرحا غائرا في نفس القارئ، حزنا يرفض التلاشي على وطن ينزف فسادا وأزمات، واستقلالا شكليا ضاعت معه أحلام الضعفاء وحتى دماء الشهداء مع ممارسات الخفاش ميلود صبري باعتباره فاعلا سياسيا وجزءا من السلطة وأمثاله كثيرون في جزائر الماضي والحاضر "...الجزائر لم تستقل أبدا، ماتزال لحد اليوم مستعمرة، رحل المستعمرون الأجانب، وحلّ محلّهم أبناء جدلتنا، يا حضرات..." (لخوص، 2019، صفحة 106)

يمكن تفسير هذه الظاهرة بما وقعت فيه الطبقة البرجوازية بعد فك الارتباط المادي والفضائي بين المستعمر والمستعمّر من تبعية للغربة الشمولية، وصناعة للكولونيالية لا شعوريا بسبب حالة العجز وغياب الوعي لدى الطبقة البرجوازية الوطنية بمفهوم الدولة، الفرد والمجتمع، الأمر الذي أوقعها في فخ إعادة صناعة الكولونيالية "الاستلاب" أو "الهذيان المانوي" كما اصطلح عليه فرانز فانون، حيث تنبأ فانون في دراسته للعلاقة بين المستعمر والمستعمّر بحلول البرجوازية الوطنية محل الاستعمار. أخذت عنه صفته ومكانه ومارست العنف والاضطهاد أكثر من الاستعمار الفرنسي في حد ذاته. يضاف إلى هذا العجز وقصور الوعي، وغياب إرادة حقيقية لدى السلطة والأوساط الأكاديمية حسب رأينا لاقتلاع وتصفية الإرث الثقافي الكولونيالي في الجزائر عدا بعض الجهود التي وإن كانت جبارة تبقى ضعيفة أمام حجم هذا الإرث الذي له ما يبرر بقاءه عند فانون فالعلاقة بين المستعمر والمستعمّر لا يمكن اختزالها في حدود الفضائية والمادية؛ فالاستعمار كيان نفسي يستقر في الذات

خروجه من الأرض وبقاؤه في الذات يعني إعادة إنتاج لسيرورة كولونيالية وممارسات استعمارية لا تختلف عن ممارسات الاستعمار في حد ذاته.

عقب تحقيق الاستقلال يصبح الرهان متعلقا بمشروع الانعتاق الأكثر أهمية، والتحدي الحقيقي للشعوب المستعمرة من محو الاستعمار المنحصر في حل واحد حسب قانون، بمعنى آخر الانعتاق ليس هدية ومعطى، بل هو بناء نفسي ومجتمعي له أدواته وآلياته غير المرتبطة بمقولات الغرب حول الحرية، التنوير، والعقل (بن بووعزيز، 2018، صفحة 32)

يمارس الخفاش صبري نفاقه ولعبه على الحبلين مستغلا موقعه الثوري لقضاء مصالحه الشخصية، ويسعى للوصول إلى الشعور بالذات الفاعلة التي تحظى بالقيمة الاجتماعية عن طريق التسلط على الآخر ولو كان ذا قرى، وجعل محيطه كالدمى في يده بوسائل مختلفة؛ أولها العنف بأشكاله المتعددة لفظيا جسديا وحتى رمزيا يقول جوفونيل: " المرء يشعر بنفسه أنه أكثر من مجرد إنسان حين يتمكن من فرض نفسه ومن جعل الآخرين أدوات تطيع رغبته مما يعطيه لذة لا تضاهي " (أرندت، في العنف، 2015، صفحة 171)

نظر الفلاسفة للعنف متفقين ومختلفين حول ماهيته، أصله وأشكاله والتقى البعض في اعتبار العنف ظاهرة متجذرة في التاريخ مثلما هو الحال عند الماركسية وعند سيغمود فرويد الذي يرى أن العنف سمة جوهرية في الطبيعة الإنسانية لم تقو النظم والتعاليم الأخلاقية على كبحها، فالتاريخ مليء بالصراعات بداية من قابيل وهابيل وصولا للحرب العالمية الثانية؛ وصل الأمر بتشبيه فرويد استقرار العنف في النفس

البشرية بالجنس. يقول توماس هوبس: "الإنسان ذئب أخيه الإنسان" وفي هذا يختلف مع الماركسية التي ترى أن الإنسان خير بطبيعته يميل إلى فعل الخير والسلام أفسدته الظروف والظلم الاجتماعي.

لا يمكن اتخاذ هذه المقولات حسب رأينا ذريعة لممارسة العنف، حيث تثبت التجارب وسائل أخرى تحقق الشعور بالذات بعيدا عن العنف؛ هذا العنف يتجرد من سلبيته إذا ما أدرجناه في سياقات أخرى كالسياق الثوري؛ وهنا يكون العنف فضيلة، وسلوكا نبيلًا يفضي لطرده المستعمر من التواجد المادي في الأرض على العكس من السياق الاستعماري، فالتاريخ يثبت أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بها، وما من ثورة نجحت دون اللجوء للعنف يقول فانون "...فإن محو الاستعمار إنما هو حدث عنيف دائم" (فانون، 2015، صفحة 39) بمعنى آخر لا يمكن الاستغناء عن العنف في المشروع التحرري من فضاء المستعمر وماديته ليتم بعدها الانعتاق من ذاته بأدوات وآليات أخرى.

يشير الباحث وحيد بن بوعزيز إلى رفض جان بول ساتر - المفكر المساند لكل الأقلام المناضلة ضد أنطولوجيا الاستعمار، عقله الإمبريالي، والساعية لتفكيك خطاب الهيمنة - نظرية العنف العفوي الفانونية والسبب أن ساتر لم يقرأ العنف في سياق المفكر الإنتيلي فرانز فانون ممّا دفعه إلى رفضه "...فعندما قدّم ساتر كتاب "المعذبون في الأرض" وجد أن نظرية فانون في العنف العفوي غير مقبولة نوعا ما انطلاقا من أخلاقية الآخر، والحقيقة أن ما جعل ساتر يعطي حكما قيميا على هذه النظرية انطلاقه من سياق مغاير تماما لسياق فانون..." (بن بوعزيز، 2018، صفحة 32) هنا نتوقف عند التأويليين وقراءتهم للخطاب في عالمه،

يضيف الباحث لونيس بن علي في حديثه عن التحرر بوصفه فعلا عنيفا حيث يعتبر العنف استنادا لتحليلات فانون امتحانا لاقتلاع الخوف النفسي من الآخر وإثبات الذات وأحقيتها في الوجود واكتسابها للثقة يقول "... ليس العنف الفانوني ممارسة سلبية ذات طابع تدميري، بل له وظيفة تجميع شتات الذات بسبب الاضطهاد الممارس عليها..." (بن علي، 2018، صفحة 38)

استندت رواية "طير الليل" على فكرة النفوذ الواسع لميلود صبري، واستعماله التعسفي لسلطته المستمدة من تاريخه الثوري، حيث أقام ميلود صبري علاقته مع أقرب المقربين إليه على أساس سلطوي فوق دونه أن يدرك أن الزمن كفيل بمصيره المحتوم، وهو الأمر الذي حدث فعلا فوجد مقتولا مجدوع الأنف في فراش نومه، يسبح في بحر من الدماء والبول في رسالة واضحة لتصفية ذات دلالة رمزية وهي الخيانة، فقد عُرف عن المجاهدين في الثورة قطع أرنبة الأنف كعلامة للخيانة، وهي النهاية المأساوية لكثير من المتجبرين والخونة المحتكرين للسلطة، فانتقل ميلود صبري من علو وسمو المقام إلى الدرك الأسفل وكان هذا على يد من أصابهم أذيتُه "كان القتل عاريا، مقيد اليدين والقدمين وسط خليط من الدم والبول والبراز، اقترب أكثر فرأى أرنبة الأنف على الصدر، وعلامات الذبح من الوريد إلى الوريد" (لخص، 2019، صفحة 26)

تكشف تجربة ميلود صبري خطورة احتكار شخص واحد للسلطة، وهو الأمر المفضي إلى ممارسة للعنف، واستعمال كل الوسائل حفاظا على الموقع والمصالح الشخصية. يشير زكريا إبراهيم في كتابه

"مشكلة الحرية" إلى أن: "تركيز السلطة في يد واحدة من شأنه حتماً أن يؤدي إلى الطغيان" (إبراهيم ز.، صفحة 255)

استطاع لخصوص أن يحوّل شخصية ميلود صبري إلى علامة نصية واضحة لتخلي الإنسان عن مبادئ الإنسانية، وتجرده من قيم النبيل على أعتاب السلطة، ومصيره يثبت مقولة السقوط الانهزامي الذي يعني أن كل تسلط إنساني يعني نهاية مأساوية، ومن هذا كله طرح لخصوص قضية سياسية مهمة بالترميز، فالخفاش رمز للعب على الحبلين؛ يخلق مع الطيور مرة ويمشي مع الفئران مرة أخرى. هذه القضية هي استغلال الكثير من الشخصيات في الجزائر بعد الاستقلال تاريخهم الثوري ومن هذه الشخصيات مجاهدون ومناضلون مزيّفون ضد الاستعمار الفرنسي، أظهر هذا الترميز قبح هذه الشخصيات التي خضع مسارها في الرواية وفي الواقع معا صعودا إلى القمة ثم انهيارا إلى القاع.

6 خاتمة:

نخلص في الأخير إلى:

- إمكانية وجود الحقيقة في الرواية التي تطرح قضايا تاريخية، رغم أن الروائي غير مطالب بنقل الحقيقة كما هي، لكن بقاء التاريخ صامتا يدفع بالروائي إلى الاستفادة من عنصر التخيل لملء الفراغ وقول ما لم يستطع التاريخ قوله.
- ساهمت رواية "طير الليل" لعمار لخصوص إلى حدّ ما في نزع القدسية عن الثورة واستنطاق المساحات الصامتة في التاريخ هذا الاستنطاق هو بمثابة تفكيك لغم من دون وسائل.
- إنّ رغبة الروائي في تعرية الواقع وبناء الحاضر انطلاقا من الماضي ليست بريئة في كل الحالات فالدليل اللساني كيان إيديولوجي بامتياز ولن يستطيع

الروائي مهما حاول التجرد منه ذاكرته الثقافية على هذا الأساس تبقى كل قضية سياسية أو تاريخية محلّ تشكيك.

قائمة المراجع مترجمة إلى الإنجليزية

- Abid Mohammed Saber .(2016) . The Narrating Self (The Power of History and the Play of Imagination) A Study in the Creative Novel of Sultan bin Muhammad Al-Qasimi . Damascus, Syria: Ninawa House for Studies, Publishing, and Distribution.
- Ahmed Muhammad Attia, , The Political Novel: A Critical Study in the Arab Political Novel, Egypt, Madbouly Library.
- Al-Shamali, Nidal. (2006). The Novel and History (A Study of Discourse Levels in Arabic Historical Novels) (1st edition). Amman, Jordan: Dar Al-Kitab Al-Hadith.
- Al-Tahiri Zbiri, , (2011), Half a Century of Struggle - Memoirs of an Algerian Chief of Staff -, Algeria, Al-Shorouk Media.
- Al-Tamara, Abdel-Rahman, (2019), The Imaginable Possibility - The Political Reference in the Arabic Novel -, Dar Kunuz Al-Ma'rifa for Publishing and Distribution.
- Arendt, Hannah, (2014), What is Politics, Algeria, Difference Publications.
- Arendt, Hannah, On Violence, Beirut, Dar Al-Saqi.
- Ben Ali, Lounis, (2018), Edward Said - From criticism of the discourse of Orientalism to criticism of colonialism, how to establish a critical awareness -, Algeria, Dar Meem.
- Ben Bouaziz, Wahid. (2018). The Controversy of Culture - Articles on Otherness, Colonialism, and Decoloniality. Algiers, Algeria: Dar Mim Publishing .
- Ben Doudah Malika. (2015). The Political Philosophy of Hannah Arendt (1st edition). Algiers, Algeria: Differences Publications .
- Foucault, Michel. (1987). The Archaeology of Knowledge (2nd edition). (Translated by Salim Yafout) Casablanca, Morocco: Arab Cultural Center.
- Ibrahim, Abdullah, (2011), Historical Imagination - Narrative, Empire, Colonial Experience, Lebanon, Arab Foundation for Studies and Publishing.
- Ibrahim, Zakaria, The Problem of Freedom - A Series of Philosophical Problems, Misr Library.
- Lakhous, Amara, (2019). Bird of the Night, Algeria, Dar Ziber. Fanon, France, (2015), The Wretched of the Earth, Madarat Research and Publishing.
- Lugoff, Jack (2007). New History, Lebanon, Center for Arab Unity Studies.

•Lukacs, George, (1978), The Historical Novel, Beirut, Al-Tali'ah Printing House.

قائمة المراجع باللغة العربية

- إبراهيم زكريا. (بلا تاريخ). مشكلة الحرية - سلسلة مشكلات فلسفية 1- مكتبة مصر.
- إبراهيم عبد الله. (2011). التخيل التاريخي - السرد، الإمبراطورية، التجربة الاستعمارية (الإصدار 1). بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- أرندت حنة. (2014). ما السياسة (الإصدار 1). (زهير خويلدي، و بالحاج مبروك سلمي، المترجمون) الجزائر: منشورات الاختلاف.
- أرندت حنة. (2015). في العنف (الإصدار 2). (إبراهيم العريس، المترجمون) بيروت، بيروت: دار الساق.
- بن دودة مليكة. (2015). فلسفة السياسة عند حنة أرندت (الإصدار 1). الجزائر، الجزائر: منشورات الاختلاف.
- بنعلي لونيس. (2018). إدوارد سعيد- من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الكولونيالية كيف تؤسس لوعي نقدي-. الجزائر، الجزائر: دار ميم.
- التمار عبد الرحمن. (2019). الممكن المتخيل- المرجعية السياسية في الرواية العربية- (الإصدار 1). دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.
- زبييري الطاهري. (2011). نصف قرن من الكفاح - مذكرات قائد أركان جزائري- (الإصدار 1). الجزائر، الجزائر : الشروق للإعلام.
- الشمالي نضال. (2006). الرواية والتاريخ (بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية) (الإصدار 1). عمان، الأردن: عالم الكتاب الحديث. عبيد محمد صابر. (2016). الذات الساردة (سلطة التاريخ ولعبة التخيل) قراءة في الرواية الإبداعية للسلطان بن محمد القاسمي (الإصدار دط). دمشق، سوريا: دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع .
- عطية أحمد محمد. (بلا تاريخ). الرواية السياسية دراسة- نقدية في الرواية السياسية العربية-. القاهرة، مصر: مكتبة مدبولي.
- فانون فرانز. (2015). معذبو الأرض (الإصدار 2). (سامي الدروبي، و الأطاسي جمال ، المترجمون) مدارات للأبحاث والنشر.
- فوكو ميشال. (1987). حفرات المعرفة (الإصدار 2). (سالم يفوت، المترجمون) الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.
- لخص عمارة. (2019). طير الليل (الإصدار 2019). الجزائر، الجزائر : دار حبر.

• لوغوف جاك. (2007). التاريخ الجديد (الإصدار 1). (محمد طاهر منصوري، المترجمون) بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.

• لوكاتش جورج. (1978). الرواية التاريخية. (صالح جواد كاظم، المترجمون) بيروت: دار الطليعة للطباعة

• بن بوعزيز وحيد. (2018). جدل الثقافة - مقالات في الآخرة والكولونيالية والديكولونيالية. الجزائر، الجزائر: دار ميم للنشر.

• قائمة المراجع مترجمة إلى الفرنسية

- Ibrahim Zakaria. (Sans date). Le problème de la liberté - Série des problèmes philosophiques 1. Bibliothèque égyptienne.
- Ibrahim Abdellah. (2011). L'imaginaire historique - le récit, l'empire, l'expérience coloniale (édition 1). Beyrouth, Liban : L'institution arabe d'études et de publication.
- Arendt, Hannah. (2014). Qu'est-ce que la politique ? (Édition 1). (Zouhair Khouldi et Belhaj Mabrouk Salma, traducteurs) Algérie : Éditions el-Ikhtilaf.
- Arendt, Hannah. (2015). Dans la violence (édition 2). (Ibrahim Al-Arees, traducteurs) Beyrouth, Beyrouth : Dar Al-Saqi.
- Bendouda Malika. (2015). La philosophie politique chez Hannah Arendt (édition 1). Alger, Algérie : Éditions el-Ikhtilaf.
- Benali Lounis. (2018). Edward Saïd - De la critique du discours orientaliste à la critique de la colonialité : comment établir une conscience critique -. Alger, Algérie : Éditions Mim.
- El Tamara, Abderrahmane. (2019). Le possible imaginaire - La référence politique dans le roman arabe - (Édition 1). Éditions Kounouz Al-Ma'rifa pour l'édition et la distribution.
- Zbiri Tahar. (2011). Un demi-siècle de lutte - Mémoires d'un chef d'état-major algérien - (Edition 1). Alger, Algérie : El Shorouk Media.
- Shamali, Nidal (2006). Le roman et l'histoire (Recherche sur les niveaux de discours dans le roman historique arabe) (Edition 1). Amman, Jordanie : Modern Book World.
- Obaid Mohammed Saber. (2016). Le moi narratif (l'autorité de l'histoire et le jeu de l'imagination) : une lecture dans le roman créatif de Sultan bin Mohammad Al-Qasimi ,Damas, Syrie : Dar Ninive pour les études, l'édition et la distribution.
- Attiya Ahmed Mohammed. (Sans date). Le roman politique : une étude critique du roman politique arabe. Le Caire, Égypte : Bibliothèque Madbouly.
- Fanon Franz. (2015). Les damnés de la terre (Edition 2). (Sami Al-Droubi et Al-Attasi Jamal, traducteurs) Madarat l-ilabhathe w-nachre.

- Foucault, Michel. (1987). L'Archéologie du savoir (Edition 2). (Salem Yifut, Traducteurs) Casablanca, Maroc : Centre culturel arabe.
- Lakhous Amara. (2019). L'oiseau de nuit (édition 2019). Alger, Algérie : Dar Hibr.
- Le Goff, Jacques (2007). La nouvelle histoire (Edition 1). (Mohamed Tahir Mansouri, les traducteurs) Beyrouth, Liban : Centre d'études de l'unité arabe.
- Lukacs, George (1978). Le roman historique. (Saleh Jawad Kazim, traducteurs) Beyrouth : Dar Al-Tali'ah pour l'impression.
- Benbouaziz Wahid. (2018). La dialectique de la culture - Essais sur l'altérité, le colonialisme et le décolonialisme. Alger, Algérie : Éditions Mim.